الظاهر والباطن
بين أهل السنة والإسماعيلية

أسامة محمد صبحي السيد عمر *

Outward and Inward Meaning According to Ahl al-Sunnah wa 'l-Jamā'ah and Ismā'īlīs

Osama Mohamed Subhi Omar*

Abstract

This article aims to elaborate on the issue of inward and outward meaning associated with Islamic philosophy, which has been extensively debated by Muslim scholars of different sects of Ahl al-Sunnah wa 'l-Jamā'ah and Ismā'īlīs. According to Ahl al-Sunnah, both the inward and outward meanings are interrelated. Therefore, they must be interpreted accordingly; otherwise, they are not considered valid in the light of the Qur'ān and sunnah. On the contrary, The Ismā'īlīs, interpret each of the terms independently. In this research work, the opinions of both sects have been discussed comparatively, along with a critical analysis of their evidence based on the texts of the Qur'ān and sunnah, and the impact of this disagreement on the faith of Muslims in this world and hereafter.

Keywords: philosophy, inward, outward, meaning, Ismā'īlīs, Sunnis.

* باحث في الدراسات الإسلامية، جامعة قطر، دولة قطر.

* Researcher in the discipline of Islamic Studies, University of Qatar, Qatar.

Summary of the Article

The human being is composed of the soul and body, each of which has its importance. Therefore, it is important to take care of the essentials of both. If one of these needs is neglected, this will lead to the deterioration of human life. Moreover, for this reason, the rulings related to both of them have been clarified in Islamic teachings because Islam is a religion, in which harmony is found between the demands of religion and worldly life. Moreover, just as the cleaning and development of the human body are necessary, the cleaning and spiritual development of the soul is also imperative. On this basis, Muslim scholars have discussed the harmony between the outer and the inner aspects and the connection between them in Islamic philosophy.

In the same way, a condition has been imposed on the faith that a person's faith should have both outward and inward dimensions. Verbal confession of faith is not enough, rather it must be manifested in actions. The reality of faith is a composite of words and deeds and saying has two parts: saying of the heart, which is belief, and saying of the tongue, which is the verbal expression of the two testimonies (*shahādatayn*). The deeds are divided into two parts: the deeds of the heart, which are intentions and sincerity, and the deeds of the body parts.

The above-mentioned stance has been adopted and elaborated by Ahl al-Sunnah, while the position of Ismā'īlīs is different from that of Ahl al-Sunnah. According to the Ismā'īlīs' philosophy, every tangible thing has an external and an internal dimension. The outer dimension is perceived through the senses, and the inner one is perceived through knowledge. Therefore, the apparent dimension is for the Messenger of Allah and the inner one is for the *waṣī*. Moreover, the apparent dimension is the law and the inner is the actuality. They hold that the upholder of the law is the Prophet Muḥammad (peace be on him), whereas the upholder of the truth is the *waṣī* 'Alī b. Abī Ṭālib. According to this philosophy, the Prophet (peace be on him) conveyed the laws made by Allah to the people, while 'Alī conveyed another kind of knowledge to the people, which complemented the Prophet's mission.

However, the Qur'ān and the *sunnah* do not support such beliefs because the Messenger of God alone conveyed the guidance and teachings of God to the people for the outward and inward purification of human beings.

التمهيد

احتلت مسألة الظاهر والباطن مساحة واسعة في اهتمامات علماء الأمة على اختلاف مشاربهم، واختلفت في هذه القضية الفرق والمذاهب، وفيما نادى أهل السنة والجماعة بضرورة التلازم بين الظاهر والباطن اقتداء بسنته ﷺ، شذّ عن هذه القاعدة العديد من الفرق ومنها الإسماعيلية وقالت بأقوال شتى، حتى إن رجال تلك الفرقة وضعوا أكثر من طرح بخصوص الباطن والظاهر وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة، وسيتم من خلال هذه الورقة استعراض الظاهر والباطن عند أهل السنة والجماعة، ثم يتم الانتقال بعدها إلى رأي الإسماعيلية في ذات الموضوع انتهاءً بالخاتمة.

أولاً: الظاهر والباطن عند أهل السنة والجماعة

الظاهر والباطن في القرآن الكريم والسنة النبوية

يقول تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، ويقول تعالى أيضا ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2]، ويقول تعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3].

١- سورة المجادلة، الآية: ٢٣.

٢- سورة المائدة، الآية: ٨١.

٣- سورة الحديد، الآية: ٣.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال ﷺ: " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ "[٤].

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ، قَالَ يَحْيَى: الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَالْبَاطِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[٥] وَقَوله: {وَالظَّاهِر وَالْبَاطِن} أَي: الظَّاهِر بالدلائل والآيات، وَالْبَاطِن لِأَنَّهُ لَا يرى بالأبصار، وَلَا يدْرك بالحواس. وَقيل: الظَّاهِر هُوَ الْغَالِب؛ وَهَذَا يُحْكى عَن ابْن عَبَّاس. وَالْبَاطِن المحتجب عَن خلقه. (وَعَن) بَعضهم: الْعَالم بِمَا ظهر وَمَا بطن.[٦] فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد فهو الأول في آخريته والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا[٧].

وقال المحققون: إنه الظاهر بالأدلة الدالة على وجوده. والباطن لأنه جلّ عن إدراك الحواس والعقول إياه إما في الدنيا أو فيها وفي الآخرة جميعًا. وقيل: معنى الظاهر الغالب، والباطن العالم بما بطن أي خفي. قال الليث: يُقال أنت أبطن بهذا الأمر؛ أي أخبر به[٨].

وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي ﷺ: "وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ"[٩]. فإذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء بذاته وأنه ليس فوقه شيء

٤- **صحيح البخاري** (٥٢) و**صحيح مسلم** (١٥٩٩).

٥- محمد علي الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير** (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م) ط٧، ج٢، ص٤٤٤.

٦- منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد أبو المظفر المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، **تفسير القرآن**، (الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م) ج٥، ص٣٦٥.

٧- محمد بن أبي بكر أيوب بن أبو عبدالله الزرعي، ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين** (الدمام: دار ابن القيم) ط٢، ص٤٧.

٨- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ) ج٦، ص٢٥٣.

٩- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث، ٢٧١٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ج ٤ ص ٢٠٨٤

البتة وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، صار لقلبه أمما يقصده وربا يعبده وإلها يتوجه إليه بخلاف من لا يدري أين ربه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها ولا معبود يتوجه إليه(١٠).

وجاء في **تفسير الجلالين** أن تفسير هذين الاسمين "الظاهر والباطن" بما فسرهما النبي ﷺ في قوله: "وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء" فيكون اسمه الظاهر دالاً على علوه على خلقه واسمه الباطن دالاً على إحاطة علمه وأنه لا يحجبه شيء فسمعه واسع لجميع الأصوات، وبصره نافذ إلى جميع المخلوقات(١١).

وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وكل اثنين من هذه الأسماء الأربعة مرتبطان، فالأول والآخر مرتبطان وبهما يحصل كمال المعنى، والظاهر والباطن مرتبطان وبهما يحصل كمال المعنى المراد إثباته لله سبحانه وتعالى، فالأول والآخر فيهما إثبات الإحاطة الزمانية له سبحانه وتعالى، والظاهر والباطن فيهما إثبات الإحاطة المكانية له جل وعلا. والظاهر مضمّن معنى العلي، فهو ظاهر على كل شيء ظهورًا مكانيًا – فهو فوق كل شيء سبحانه وتعالى – وظهورًا معنويًا. وأما الباطن فقد فسره بعضهم بالقريب، فقالوا : هو القريب من كل شيء، والقرب هنا ليس القرب الذي ذكره الله عز وجل لأوليائه، كقربه ممن دعاه، وقربه من الساجد؛ فإن ذلك قرب خاص، وإنما القرب هنا قرب عام، وهذا على القول بأن القرب ينقسم إلى عام وخاص ... ويكون معنى الباطن الذي لا تخفى عليه من خلقه خافية، فلا يحجب سبحانه وتعالى خلقه عنه شيء، بل هو المطلع على ظواهرهم وبواطنهم(١٢).

والظَّاهِر الْبَاطِن هُوَ الظَّاهِر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة وشواهد أَعْلَامه الدَّالَّة على

١٠- ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين** (الدمام: دار ابن القيم) ط٢، ص٤٢-٤٣.

١١- محمد بن عبدالرحمن الخميس، **أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين** (دار الصميعي) ص٢٨.

١٢- خالد بن عبدالله بن محمد المصلح، **شرح العقيدة الواسطية**، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net ج٥، ص٤. ب.

ثُبُوت ربوبيته وَصِحَّة وحدانيته، وَالْبَاطِن هُوَ المحتجب عَن أبصار الْخلق وَلَا يستولي عَلَيْهِ توهم الْكَيْفِيَّة، وَقيل الظَّاهِر الَّذِي ظهر فَوق كل شَيْء بقدرته، وَقد يكون الظُّهُور بِمَعْنى الْعُلُوّ وَبِمَعْنى الْغَلَبَة، وَقد يكون معنى الظُّهُور والبطون احتجابه عَن أعين الناظرين وتجليه لبصائر المتفكرين، وَقد يكون مَعْنَاهُمَا الْعَالم بِمَا ظهر من الْأُمُور المطلع على مَا بطن من الغيوب(١٣).

وقوله ﷺ: "وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ"[١٤]، كذلك فيه إثبات اسمين للباري جل وعلا الظاهر والباطن، وكذلك التفسير من النبي ﷺ، ففيه دليل على علوه سبحانه على خلقه وفوقيته واستوائه على عرشه. فإن الظاهر هو العالي المرتفع والظاهر والعالي بمعنى واحد. وفيه دليل على قربه سبحانه وإحاطته وأنه أقرب إلى كل شيء من نفسه، لأنه قال "وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ" يعني ليس أقرب إلى المرء منك، ففيه دليل على قربه سبحانه وإحاطته وأنه أقرب إلى كل شيء من نفسه، وقربه سبحانه لا يُنافي ما ذكر من عُلُوه وفوقيته فإنه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[١٥] وليس قربه كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله أن يُشْبِهَهُ شيءٌ من خلقه. فهذه الأسماء الأربعة متقابلة، اسمان منها لأزلية الرب وأبديته، وهو الأول والآخر، واسمان لعلوه وقربه وهما: الظاهر، والباطن(١٦). واسمه سبحانه "الظاهر" يعني العالي، والظهور من معانيه العلو، فهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، بل هو فوق كل شيء، وهو "الباطن" الذي ليس دونه شيء، فبصره نافذ لجميع المخلوقات(١٧).

١٣- محمد بن محمد بن علي بن همام أبو الفتح، تقيّ الدين، المعروف بابن الإمام، **سلاح المؤمن في الدعاء والذكر** (دمشق وبيروت: دار ابن كثير، ١٤١٤هـ ١٩٩٣) ج١، ص ٢٦٤.

١٤ - مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الدعاء والذكر، رقم الحديث، ٢٧١٣، ج ٤ ص ٢٠٨٤

١٥ - سورة الشورى، الآية ١١

١٦- أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، **شرح العقيدة الواسطية**، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشيخ الحازمي، http://alhazme.net، ج٦، ص٢٩.

١٧- عبدالرحمن بن ناصر البراك، **توضيح مقاصد العقيدة الواسطية** (دار التدمرية، ١٤٣٢هـ) ط٣، ص٥١.

التلازم بين الباطن والظاهر عند أهل السنة والجماعة

والإيمان الصحيح هو ما كان متلازما فيه الظاهر والباطن، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع. فقد أجمع العلماء على أن الظاهر والباطن متلازمان[١٨].

والإيمان لا يصلح إلا بالقول والعمل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد؛ فإن كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح، فاعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمناً، حتى أن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلابد أن يتكلم مع نفسه، وفي السر مع من يأمن إليه، ولابد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه، كما قال عثمان، وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان، وذلك الجسد تابع للقلب، فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن، ولو بوجه من الوجوه"[١٩].

ومن المسائل الأصول: التلازم بين الظاهر والباطن، ومعناه: أنه إذا عدم الإيمان الباطن عدم الإيمان الظاهر، فمن أظهر شرائع الإسلام أو بعض خصال الإيمان كالصلاة وغيرها ولا باطن معه من الدين فهذا هو المنافق إذاً؛ ولذلك إذا عدم الباطن عدم الظاهر حقيقةً وليس حالاً، ومعنى: ليس حالاً: أي قد يظهر حالاً كما ظهر من المنافقين الذين يقع لهم صلاة أو زكاة أو حج أو ما إلى ذلك، لذا قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[٢٠] فهم كفارٌ بالكتاب والسنة والإجماع. ويتلخص من هذا أن مسألة مسمى الإيمان تتضمن ثلاثة أصول: الأصل الأول: أنه قولٌ وعمل، والأصل الثاني: أنه يزيد وينقص، والأصل الثالث: التلازم بين

١٨- صالح بن محمد السويح، **الفروق بين عقيدة السلف وعقيدة المرجئة في الإيمان** (الرياض: مدار الوطن لنشر، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م) ص٧٢-٧٣.

١٩- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج١٤ص١٢١.

٢٠- سورة النساء، الآية: ١٤٥.

الظاهر والباطن[٢١].

وإن الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع، وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر؛ لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام، ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحد. فهذا السؤال يحرك خَطباً عظيماً وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن يكشف حقائقها فإن ذلك لم يُكلف به كافة الخلق[٢٢].

فالظاهر لا يتخلف عن الباطن ولا يضاده؛ لأنه ترجمان الباطن، ومرتبط به ارتباطاً وثيقاً. فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيماً إلا باستقامة الباطن، وكذلك العكس. والإيمان المطلوب شرعاً هو الإيمان الظاهر والباطن، وتلازم عمل القلب بعمل الجوارح؛ لأنه لا يصح إيمان العبد بواحدة دون الأخرى؛ فمن زعم وجود العمل في قلبه دون جوارحه؛ لا يثبت له اسم الإيمان؛ لأن الأعمال والأقوال الظاهرة من لوازم الإيمان التي لا تنفك عنه[٢٣].

وأما حقيقة النفس الإنسانية، فغني عن البيان والإعادة أن نقول إن الإنسان لا يمكن أن ينفصل عمله عن همه وإرادته بحال؛ إذ الأعمال ما هي إلا الأثر الظاهر للهم والإرادة، ولا يتصور منافاتها لذلك مطلقًا. غير أنه من المهم هنا أن التعريج على الحالة المعاكسة – أي حالة المنافق الذي يستسلم ظاهراً وهو غير منقاد باطناً –؛ ولبيان أن ذلك لا يتعارض مع هذه الحقيقة؛ وذلك أن أعمال

٢١- يوسف بن محمد علي الغفيص، **شرح كتاب الإيمان**، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، http://islamport.com/l/aqd/786/22.htm .

٢٢- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص ١٠٠.

٢٣- مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، **الموسوعة العقدية**، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net، ج٦، ص ١٦٣.

المنافق هي بلا ريب أثر ما في قلبه؛ فقد يقال: لم لم يتلازم الظاهر والباطن في حقه، إذ نراه على ظاهرٍ يُخالفُ باطنه؟ والجواب: إن القاعدة صحيحة، وأن التلازم ثابت؛ فإن الالتواء أو التذبذب الخارجي هو أثر الالتواء والتذبذب الباطني المطابق له[٢٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح. وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي التصديق لما في القلب، ودليل عليه وشاهد له"[٢٥].

وقال رحمه الله: "وقد تبين أن الدين لابد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه، ولم يؤد واجباً ظاهراً، ولا صلاة ولا زكاة، ولا صياماً، ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله أوجبها. مثل أن يؤدي الأمانة، أو يصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه، من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج بذلك من الكفر؛ فإن المشركين، وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور، فلا يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمدﷺ" [٢٦].

وقال رحمه الله: "وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضاً تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد

٢٤- سفر بن عبدالرحمن الحوالي، **ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي**، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى (دار الكلمة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) ج١، ص ٤٤١.

٢٥- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٧، ص٦٤٤.

٢٦- المصدر السابق، ج٧، ص٦٢١.

من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه"[٢٧].

وقال ابن القيم رحمه الله: "شعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية ... وها هنا أصل آخر وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة. فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته، وانقياده"[٢٨].

وقال رحمه الله قاعدة: "الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته"[٢٩].

وقال ابن رجب رحمه الله: "صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه للمحرمات واتقاؤه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإن كان قلبه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله، ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله، وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات، وتوقي الشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات. وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي

٢٧- المصدر السابق، ج ٧، ص٥٤١.

٢٨- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية، **كتاب الصلاة وحكم تاركها** (المدينة المنورة: مكتبة الثقافة) ص ٥٦.

٢٩- المرجع السابق، ص ٨٥ – ٨٦ .

والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب"[٣٠].

ثانياً: الظاهر والباطن عند الإسماعيلية

من الخصائص التي يختص بها الإسماعيلية، ويعدونها من مفاخرهم هي تمسكهم بالتأويل الباطني قائلين: إنه لا بد لكل محسوس من ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع الحواس عليه، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بأنه فيه، وظاهره مشتمل عليه مستدلين بقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[٣١]، وبما نسبوه إلى رسول الله ﷺ "ما نزلت علي من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن"[٣٢].

ثم قالوا إن الظاهر للرسول والباطن للوصي فقالوا: "كانت الدعوة الظاهرة قسط الرسول صلوات الله عليه، والدعوة الباطنة قسط وصيه الذي فاض منه عليه جزيل الإنعام، وأُظهر يوم الغدير سامي شرفه وفخاره، وأُعلن بطيب عنصره وكرم نجاده، وكان لما قرب نقلة رسول الله خصه الله بالصلاة عليه وآله استودع أمير المؤمنين صلوات الله عليه لولده الحسن عليه السلام، رتبة النبوة والرسالة، استودعها له إياه جده، وسلم إلى ولده الحسين رتبة الباطن التي هي قسطه وحده، وصارت حدود الدين الظاهرة بعد ذلك في كل وقت قائمة مقام الحسن، والحدود الباطنة قائمة مقام الحسين، ويجري الأمر كذلك في إمام بعد إمام إلى أن يكون قائم القيامة عليه السلام هو المتسلم

٣٠- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م) ج١، ص ٢١٠.

٣١- سورة آل عمران، الآية: ٧.

٣٢- إحسان إلهي ظهير، **الإسماعيلية تاريخ وعقائد** (لاهور: إدارة ترجمان السنة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص٤٧٢.

للمنزلتين والحائز للمرتبتين"[٣٣].

فجعلوا تبليغ نصف الدين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وتبليغ النصف الآخر إلى علي رضي عنه الذي هو الوصي والأساس كما صرح بذلك الداعي الإسماعيلي: "إن علي بن أبي طالب هو مثل الليل لكونه صاحب التأويل، ومنزلة الرسول منزلة النهار لأنه صاحب التنزيل الظاهر، ولما كان الدين ظاهرا وباطنا قام النبي صلى الله وعليه وسلم بتبليغ الظاهر، وصرف إلى وصيه نصف الدين وهو الباطن"[٣٤].

ولما كان الناطق يأتي لينسخ شريعة ما قبله بإظهار شريعة جديدة، كذلك يكون الصامت فيأتي لنسخ التأويل الذي قبله، وإنه لا بد للناطق من صامت يكون قريبا منه وأساسًا له. ولا بد لكل ناطق من صامت يحتاج إلى مشورته في أمور الدين والدنيا وما يجب فيه من الحكمة الإلهية والعناية الربانية، وقد وجب أن يكون الصامت قد اطلع مثل الناطق على جميع الأسرار النبوية ليمكنه مؤازرته ومعاونته ومعاضدته بتنفيذ أحكامها. وقد اتفق جميع العلماء على أن الله سبحانه وتعالى أنزل فرائضه في الشرائع مجملة وغير مفسرة ومقسمة ففسرها وقسمها الرسول ظاهريًا ووضع كل شيء منها في موضعه ثم عهد بتقسيمها وتفصيلها باطنيًا إلى صامت يعرض عليه من التأليف ما يكون له القوة والفاعلية، وقد لا يكمل الدور إلا باثنين صامت وناطق[٣٥].

لقد انطلق الإسماعيلية في وجوب التأويل الباطني من المثل والمثول (الظاهر والباطن)، والتي تعد المحور الذي يرتكز عليه التأويل الباطني عند الإسماعيلية بصورة عامة، إذ إنهم يعتقدون بأن لكل شيء ظاهرًاوباطنًا ، والظاهر يسمى (مثلًا) والباطن يسمى (ممثولًا) فما يظهر من الأمور في الحياة يفهمها العامة، وفي الوقت نفسه هناك تأويل لأي أمر من هذه الأمور لا يعلمه إلا الأئمة[٣٦].

٣٣- الداعي علي بن الوليد، **كتاب الذخيرة في الحقيقة** (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١م) ص١١٣.

٣٤- إحسان إلهي ظهير، **الإسماعيلية تاريخ وعقائد** (لاهور: إدارة ترجمان السنة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص٤٧٥.

٣٥- إسحاق السجستاني، **إثبات النبوءات** (بيروت: دار المشرق) ط٢، ص ١٩١، ١٩٢.

٣٦- آية الله الشيخ جعفر السبحاني، **المذاهب الإسلامية** (بيروت: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع) ط٢، ص ٢٩٢-٢٩٣.

ويقول النعمان القاضي: "ومن أقام الظاهر وحده دون الباطن كان كمن قال فيه رسول اللهﷺ: إنه لا خلاق له، وممن قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣٧]. والخلاق في اللغة: "النصيب من الحظ الصالح فمن اقتصر على الظاهر وحده دون الباطن لم يكن له نصيب من الحظ الصالح في الدنيا ولا في الآخرة، والشرى الذي ذكره الله عز وجل أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم هو البيعة للرسول في وقته ولإمام كل زمان من بعده ... وأنه لا يجزي إقامة أحدهما دون الآخر"[٣٨]. ومن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن، أو بباطن دون ظاهر فهو ممن يعبده على حرف[٣٩].

كما أنهم قالوا: إن رسول الله ﷺ معجزته ظاهرة القرآن، وتأويله معجزة لعلي رضي الله عنه، ثم وسّعوا فيه وعمّموه على أولاده فقالوا: فجعل عزّ وجلّ ظاهر القرآن معجزة رسوله وباطنه معجزة للأئمة من أهل بيته لا يوجد إلا عندهم، ولا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد رسول الله ﷺ جدهم، ولا أن يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته، وهو علم متوافر بينهم، مستودع فيهم، يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون، ويعطون كل أحد منه ما يستحقون، ويمنعون منه من يجب منعه، ويدفعون عنه من استحق دفعه[٤٠].

وهل يقال باطن إلا وله ظاهر؟ وإذا لم يثبت ظاهر، فلماذا يكون الباطن؟ وكذلك إذا لم يكن باطن فلا ظاهر إذن، وإنما يصحّ كل واحد منهما ويقوم بإثبات الآخر. ولو لم يثبت أحدهما لم يثبت اسم الثاني عليه. ولا يقال باطن إلا لما له ظاهر، ولا يقال ظاهر إلا لما له باطن[٤١].

٣٧- سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

٣٨- النعمان بن محمد، **تأويل الدعائم** (القاهرة: دار المعارف) ج٣، ص٢٧١.

٣٩- علم الإسلام ثقة الإمام، **المجالس المستنصرية** (القاهرة: دار الفكر العربي) ص٢٩.

٤٠- النعمان بن حيون التميمي المغربي (بيروت: دار الثقافة) ص٣١-٣٢.

٤١- القاضي النعمان بن محمد، **المجالس والمسايرات** (بيروت: دار المنتظر، ١٩٩٦م) ص٨٦.

وفي جملة مذهبهم أنه لا بد لكل ظاهر من باطن، وهو المقصود في الحقيقة، وهو بمنزلة اللب، والظاهر بمنزلة القشر، وعملوا بذلك في جميع الكلام وأنواع الأجسام، ولم يعتبروا المطابقة بين الظاهر والباطن، بل تأويلاتهم لا تناسب الظاهر من حيث الحقيقة والمجاز، ولم يقتصروا مع ذلك على تأويل واحد، بل أثبتوا تأويلاً للتأويل، وجعلوا للعبارة الواحدة أيضاً تأويلات عدة، حتى ذكر صاحب **المبتدأ والمنتهى** وهو من أكابرهم في الكفر والضلالات والعمى، حيث قال: "وقد رُوي عن موالينا عليهم السلام أنا نقول الكلمة لها سبعة وجوه"(٤٢).

وقال الغزالي: "إنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطال معاني الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المقتولين"(٤٣).

خاتمة:

بناء على ما سبق، فإن أهل السنة والجماعة قد أجمعوا على أن الإيمان لا يكتمل إلا باجتماع الظاهر والباطن وحصول التطابق بينهما في القول والفعل، والمسلم مُلزم بذلك حتى يكون إيمانه تاما مخلصا، فلم ينفع المشركين ما قالوه بأننا نعتقد صدق الرُسل ولكن لا نتبعهم ولا نُؤمن بهم، فالإيمان قول وفعل واعتقاد، والإيمان له أصل وهو ما في القلب أو ما في القلب واللسان، ولزومه هو العمل المرتبط به ارتباطاً ليس معه انفكاك. فمن ادعى التصديق والإقرار ولم يقل بالشهادتين فهو كاذب، ومن ادعى التصديق وقال بالشهادتين ولم يتبرأ من الكفر والشرك ولم يعمل بالشرائع، فلن تنفعه كلمة التوحيد والتصديق الذي ادعاه.

أما الإسماعيلية فقد تمسكوا بالتأويل الباطني وقالوا إن لكل محسوس ظاهرًا وباطنًا،

٤٢- محمد بن الحسن الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه**، عني بتصحيحه: ر. شتروطمان، ص ٣٩، ٤٠.

٤٣- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **فضائح الباطنية** (الكويت: مؤسسة دار الكتب الثقافية) ص٥٥.

فالظاهر ما تقع عليه الحواس، والباطن يحوي العلم، والظاهر للرسول والباطن للوصي، والظاهر هو الشريعة، والباطن هو الحقيقة، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد صلوات الله عليه، وصاحب الحقيقة هو الوصي على بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهذا يعني أن رسول الله ﷺبلّغ قسمًا من الشريعة، وبلّغ عليٌّ القسم الآخر وبه كمُلت الرسالة، وهكذا فقد اشترك النبي ﷺوعليٌّ رضي الله عنه في البلاغ، وكان القسم والقشر من نصيب الرسول ﷺ، واللب والروح حظ علي رضي الله عنه، والإيمان لا يكتمل إلا بالتصديق بالناطق وهو الرسولﷺ والأساس والصامت وهو علي رضي الله عنه.

وإذا كان الأمر كذلك عند الإسماعيلية فهو يناقض قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٤٤)، و﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾(٤٥)، و﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(٤٦)، و﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(٤٧) وغير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

وإذا كانت دعوة رسول الله ﷺ للناس كافة، فلماذا تكون دعوة علي -رضي الله عنه- والأئمة من بعده للخاصة وخاصة الخاصة، وتقتصر النجاة على هذه الطائفة من الناس الشاذة عن الجماعة!

٤٤- سورة سبأ، الآية: ٢٨.

٤٥- سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

٤٦- سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

٤٧- سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

The References

1. Al-Qur'an
2. Abdul Rahman bin Nasir al-Barak, **Taūḍīḥ Maqāṣid al-ʿAqīdah al-Wāsṭīyyah** (Dār al-Tadmirīyyah, 1432 AH).
3. Abu Hamid al-Ghazali, **Faḍāʾīḥ al-Bāṭinīyyah** (Kuwait: Dār al-Kutub al-Ṯhaqāfīyyah).
4. Ali bin Waleed, **Kitāb al-Ḏḫakhīrah fī al-Ḥaqīqah**, (Beirut: Dar al-Thaqafah, 1971).
5. al-Mūsūʿah al-ʿAqadīyyah, www.dorar.net
6. Ibn Qayyīm al-Jawzīyyah, **Ṭarīq al- Hijrataīn wa Bāb al-Saʿādatayn.**, (Damam: Dār Ibn al- Qayyīm).
7. Zayn-Uddīn Abdul Rahman bin Aḥmad Ibn Rajab al-Ḥanbalī, **Jāmiʿ al-ʿUlūm wa al-Ḥikam** fī Sharḥ Khamsīna Ḥadīthan min Jawāmiʿ al-Kalim, Ed. Shuʿayb al-Arnāʾūṭ and Ibrāhīm Bājis (Beirut: Mūsasaẗ al-Risālah, 2011).
8. Iḥsān Ilahī Zaheer, **al-Ismāʿīlīyyah Tārīikẖ wa ʿAqāʾīd**, (Lahore: Tarjumān al-Sunnah, 1983).
9. Ishaq al-Sajistani, **Iṯhbāt al-Nubūʾāt**,(Beirut: Dār al-Mashriq).
10. Jafar al-Subḥānī, **al-Maḏāhib al- Islāmiyyah**, (Beirut: Dār al-Walāʾ li al-Ṭibāʿah wa al-Nashr wa al-Tawzīʿ).
11. Mansoor bin Muhammad, **Tafsīr al-Qurʾān** (Riyadh: Dār al-Watan, 1997).
12. Muhammad Ali Al- Ṣabonī, **Mukẖtaṣar Tafsīr ibn Kaṯhīr**, (Beirut: Dār al-Qurʾān al-Karīm 1981).
13. Muhammad bin Abdul Rahman al-Khamees, **Anwār al-Hilālīn fī al-Taʿqubāt ʿla al-Jalālaīn** (Dār al-Ṣamīiʿī).
14. Muhammad bin al-Ḥasan, **Bayān Maḏhab al-Bāṭinīyyah wa Buṭlānih**.
15. Muhammad bin Muhammad bin Humam, **salāḥ al-mūʾmin fī al-duʿāʾ wa al-ḏikr** (Beirut: dār ibn kaṯhīr, 1993).
16. Nauman bin Muhammad, **taʾawīl al-daʿāʾīm**, (Cairo: dār al-maʿārif,).
17. Nauman, **al-majālis wa al-musāīarāt** (Beirut: dār al-muntaẓir).
18. Nizamuddin, **gharāʾīb al-qurʾān wa raghāʾīb al-furqān** (Beirut: Dār ul- Kutub al- ʿilmiyyah, 1416 AH).
19. Salih bin Muhammad**, al-furūq baīn ʿaqīdaẗ al-salaf wa ʿaqīdaẗ al-murjiʾiaẗ fī al-īmān**, (Riyadh: madār al-waṭan, 2018).